

القَصَصُ الدِّينِيُّ
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

مَلِكُ الْأَنْدَلُسِ

عبد الحميد جودة السحار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ، حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ، وَكَوَاعِبَ
أُتْرَابًا ، وَكَأْسًا دِهَاقًا ، لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا
وَلَا كِذَابًا ، جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ .

(صدق الله العظيم)

كان غيطشة يحكم الأندلس ، وكان ملكا عابثا
 ماجنا ، فراح يُشيّع الفواحش بين الناس ، فعلم
 الشعب ارتكاب الذنوب ، واقتِراف الآثام ، وكان
 رُودريك (لُذريق) أثيرا لديه . كان يُقرّبه منه ؛ لأنه
 ما كان يعصى له أمرا ، وكان الرجال الصّالحون
 يُغضون غيطشة وحكمه . فلمّا مات وترك أولادًا
 ضعافا ، لم يجدوا من يعطفُ عليهم ، لسيرة أبيهم
 البغيضة ، فانتهر لُذريق هذه الفرصة ، واستمال
 طائفة من الرجال مالوا معه ، فانتزع الملك من أولاد
 الملك المُستهتر ، ونادى بنفسه ملكا على الأندلس .
 واقتعد لُذريق أريكة الملك ، فجاء إليه خاصته ،
 وقالوا له :

- ضَعُ قُفْلًا عَلَى بَيْتِ الْحِكْمَةِ .

فَقَالَ لَهُمْ :

- لِمَاذَا ؟

قَالُوا :

- مَا مِنْ مَلِكٍ اعْتَلَى الْحُكْمَ ، إِلَّا وَضَعَ قُفْلًا عَلَى هَذَا الْبَيْتِ .

قَالَ :

- وَكَمْ قُفْلًا عَلَيْهِ ؟

- سِتَّةٌ وَعِشْرُونَ قُفْلًا .

فَقَالَ فِي عِزْمٍ :

- قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ أَمْرِ هَذَا الْبَيْتِ شَيْءٌ ، أُرِيدُ أَنْ أَفْتَحَهُ ، لِأَنْظُرَ مَا فِيهِ لِأَنَّهُ لَمْ يُعْمَلْ عَبَثًا .

فَقَالُوا :

- أَيُّهَا الْمَلِكُ صَدَقْتَ ، إِنَّهُ لَمْ يُصْنَعْ عَبَثًا ، وَلَمْ يُقْفَلْ سُدًى ، وَالرَّأْيُ وَالْمَصْلَحَةُ أَنْ تُلْقَى أَنْتَ أَيْضًا عَلَيْهِ قُفْلًا ، أَسْوَأَ بِمَنْ تَقَدَّمَكَ مِنَ الْمُلُوكِ .

فقال في عزم :

- إِنَّ نَفْسِي تُنَازِعُنِي إِلَى فَتْحِهِ ، وَلَا بَدَّ لِي مِنْهُ .

ففرعوا ، وقالوا له في توسُّل :

- إِنْ كُنْتَ تَظُنُّ أَنَّ فِيهِ مَا لَا فَقْدَرَهُ ، وَنَحْنُ نَجْمَعُ

لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا نَظِيرَهُ ، وَلَا تُخْذِلْ عَلَيْنَا بِفَتْحِهِ حَادِثًا

لَا نَعْرِفُ عَاقِبَتَهُ .

فقال في إصرار :

- لَا بَدَّ لِي مِنْ فَتْحِهِ .

وقام إلى بيت الحكمة ليفتحه ، وانطلق معه رجاله

وهم يتوجَّسون خوفاً .

سار لُذْرِيْقُ ورجاله حتَّى إذا بلغ البيت ، أمرَ بفتح
 الأقفال ، وكان على كلِّ قُفْلٍ مُفْتَاحُهُ مُعَلَّقًا ، فتقدَّم
 الرِّجَالُ بقلوبٍ واجفة ، وفتحوها وأيديهم ترتعد ،
 فلما فُتِحَ الباب ، دخل لُذْرِيْقُ وتلَّفت فلم يجدْ
 إلَّا مائدةً عظيمةً ، وتابوتا عليه قُفْلٌ ومِفْتَاحُهُ معلق ،
 ففتح التَّابُوتَ ، فرأى تمثالاً من النُّحاسِ الأحمرِ
 والحديدِ المُصَفَّى ، لرجلٍ بربريٍّ له لِحْيَةٌ وفي رأسه
 ذُوَابَةٌ من شعر جَعْد ، وفي رجله نَعْلٌ ، وقد مدَّ يده
 اليمنى بمِفْتَاحِ قُفْلٍ قابض عليه ، ووجدَ رَقًّا فأمر
 بنشره ، فإذا فيه : متى فُتِحَ هذا البيتُ وهذا
 التَّابُوتُ المُقْفَلَانِ بالحكمة ، دخلَ قومٌ هذا الرجلِ إلى

جزيرة الأندلس ، وذهب مُلْكُ من فيها من أيديهم ،
وبطلت حكمتهم .

سمع لُذْرِيْق ما فى الرّق ، فندِم على ما فعل ،
وانصرف مُطَرِّقاً مهموماً .

عَظُمُ غَمُّ لُذْرِيْقٍ ، وَغَمُّ شَعْبِهِ ، وَأَمْرَ بَرْدِ الْأَقْفَالِ ،
وإِقْرَارِ الْحُرَّاسِ ، وَعَادَ إِلَى قَصْرِهِ يَلْفُهُ قَلْقُهُ . وَلَكِنْ
سُرْعَانَ مَا انْقَشَعَ الْقَلْقُ ، وَرُدَّ لُذْرِيْقٌ إِلَى طَبْعِهِ ،
يَسُوسُ أَمْرَ رَعِيَّتِهِ ، وَيَعْبُ كَأْسَ لَذَّاتِهِ .

وَكَانَ مِنْ تَقَالِيدِ أَكْبَرِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ وَقَوَادِمِهِمْ ، أَنْ
يَبْعَثُوا أَوْلَادَهُمْ ، الَّذِينَ يُرِيدُونَ مَنْفَعَتَهُمْ ، وَالتَّنْوِيَةَ
بِهِمْ ، إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَكْبَرِ بَطْلَيْطَلَةَ ، لِيَصِيرُوا فِي
خِدْمَتِهِ وَيَتَأَدَّبُوا بِأَدَبِهِ ، حَتَّى إِذَا مَا شَبُّوا عَنْ
الطَوِّقِ ، تَصَاهَرُوا ، وَتَزَوَّجَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ .
وَكَانَ لِيَلْيَانَ ، عَامِلِ لُذْرِيْقٍ عَلَى سَبْتَةِ ، ابْنَةِ رَائِعَةَ
الْجَمَالِ ، حَمَلَهَا إِلَى قَصْرِ الْمَلِكِ ، لَتَعِيشَ هُنَاكَ عَيْشَةَ
الْمُلُوكِ ، وَمَا أَنْ وَصَلَتْ فَلُورِنْدَا ابْنَةُ يُلْيَانَ إِلَى

القصر ، حتى بهرَ جمالها الرائعُ كلَّ من رآها .
وفي ذاتِ ليلةٍ ، وقعتْ عينُ لُذريقَ عليها ،
فأعجبته ، وأحبَّها حبًّا شديدًا ، استولى على
حواسِّه ، ولم يملكْ نفسه حتى اغتصبَّها .
غضبتْ فلورندا غضبًا شديدًا ، وارتدتْ في
فراشها تبكي شبابها الضائع ، وفكَّرتْ في أنْ تشارَ
لنفسِها ، فلم تجدْ أمامها إلاَّ أنْ تكتبَ إلى أبيها
بما فعلَ الملكُ ، ليفعلَ ما يراه ، انتقامًا لشرفه المثلوم .

وصلت رسالة فلورندا إلى أبيها ، فثار ومشى
الحق في جوفه ينهشه ، وعزم على أن ينتقم من
ذلك الذى خان الأمانة ، انتقاماً رهيباً ، يشفى غليل
صدره ؛ ورأى قبل أن يبدأ فى تقويض ملكه ، أن
يسترد منه ابنته ، فانطلق إلى طليطلة ، وبين جوانحه
أتون نار .

دخل يُلْيَانُ على لُذْرِيْقٍ وقد كتم ثورته ، وبدا
هادئاً ساكناً ، ولكن لُذْرِيْقَ أوجس خيفة ، فقال له :
- ما الذى جاء بك فى هذا البرد القارس ؟

فقال يُلْيَانُ :

- ما جاء بى إلا أن زوجتى فى النزاع الأخير ،
وهى فى شوق إلى رؤية ابنتها التى عندك .

- أفى مثل هذا البرد الشديد تحمل فلورندا ؟ !
- كل ما أرجوه أن أبلغ زوجتى أمْنيتها الأخيرة ،
بالله يا مولاي عجل بإطلاق فلورندا .
ودخل الملك على فلورندا ، والتمس منها
الأتذكر لأبيها شيئاً مما جرى بينهما ، فوعده خيراً ،
فأطلقها وهو يتسّم ، دون أن يدري أنّ الشيخ
الحانق ، سيُزلزل الأرض تحت أقدامه ، بعد أن يتعدّ
بابنته ، التى كانت ضحية ملك غادر ، لا يرعى
حُرمة .

بلغ يُليان سَبْتَةً ، مَقَرَّ حُكْمِهِ ، فلمْ يَسْتَقِرَّ لَهُ
 قَرَارٌ ، ولمْ يَهْدَأْ لَهُ بَالٌ ، وراح يَتَهَيَّأُ لِلْمَسِيرِ إِلَى
 مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ ، أَمِيرِ إِفْرِيقِيَّةٍ ، وَالْوَالِي عَلَى الْبَرْبَرِ ،
 الَّذِينَ تَأْتَلِقُ عَيُونُهُمْ بِالطَّمْعِ فِي الْأَنْدَلُسِ ، يَحْرُضُهُ
 عَلَى غَزْوِ لُذْرِيْقٍ ، وَخَلَعَهُ عَنْ عَرْشِهِ .

دَخَلَ يُليانُ عَلَى مُوسَى ، وَراحَ يَصِفُ لَهُ حُسْنَ
 الْأَنْدَلُسِ وَفَضْلَهَا ، وَطِيبَ الْمَزَارِعِ ، وَكَثْرَةَ الشُّمَارِ ،
 وَغَزَارَةَ الْمِيَاهِ وَغُدُوبَتَهَا ، وَضَعْفَ رِجَالِهَا ، وَقِلَّةَ
 كِفَايَتِهِمْ ، وَراحَ يُحَرِّضُهُ عَلَى غَزْوِهَا ، فَأَطْرَقَ
 مُوسَى يُفَكِّرُ ؛ إِنَّهُ لَيَشْتَهِي أَنْ يَغْزُوَ هَذِهِ الْبِلَادَ
 الْغَنِيَّةَ ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَكِنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَكُونَ يُليانُ
 مَا جَاءَ إِلَّا لِيَنْصِبَ شَرَكًا لِلْمُسْلِمِينَ ، فَقَالَ لَهُ :

- لماذا لا تبدأ أنت ورجالك بشن الغارة ، ثم نرى ما يكون ؟

وقبل يُليان أن يبدأ بالهجوم على أطراف الأندلس ، فجمع جمعاً من أهل عمله ، وجهّز مركبتين شحنهما برجاله ، ثم انطلق للإغارة .

أغار على ساحل الجزيرة الخضراء ، وقتل وسبى وغنم ، وأقام بها أياماً ، ثم رجّع بمن معه سالمين . فلما رأى موسى يسر الغارة ، وشاع الخبر عند المسلمين ، أنسوا ليليان ، واطمأنوا إليه ، وملكوا فكرة غزو الأندلس حواس موسى بن نصير .

وكتب موسى بن نصير إلى أمير المؤمنين بدمشق ، الوليد بن عبد الملك ، يُخبره بالذى دعاه إليه ليليان ، من أمر الأندلس ، ويستأذنه فى اقتحامها ، فكتب إليه الوليد : « أن خضها بالسرايا ، حتى ترى وتستخبر شأنها ، ولا تغرر بالمسلمين ، فى بحر شديد الأهوال » .

تأهب موسى لبعث السرايا ، فجهز أربع
مراكب ، حمل فيها أربع مئة رجل ، معهم مئة فرس ،
وأمر عليهم طريفا ، وكان من مواليه من البربر ،
وانطلقت المراكب ، حتى إذا ما بلغت جزيرة تقابل
جزيرة الأندلس الخضراء ، نزل بها برجاله ،
فسميت « جزيرة طريف » ، وأقام بها أياما ، حتى
التأم بها أصحابه ، ثم مضى حتى أغار على الجزيرة ،
فأصاب سبيا وغنائم كثيرة .

وعاد طريف إلى إفريقية ، يسوق السبي والغنائم ،
فخرج الناس ينظرون ، فرأوا سبيا لم يروا مثله
حسنا ، ومالا جسيما ، وأمتعة فاخرة ، فاشتاقوا
للغزو ، وباتوا يحلمون بالحسان والمال الوفير . وجاء
يُليان إلى موسى يحرضه على قتال لذريق ، ويهون له
شأن القوم ويذكر له ما فعله ، وما فعله طريف ،

فَعَزَمَ مُوسَى عَلَى غَزْوِ الْأَنْدَلُسِ ، وَتَوْسِيعِ رُقْعَةِ
الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ .

وَفَكَّرَ مُوسَى فِيمَنْ يَعْهَدُ إِلَيْهِ قِيَادَةَ الْحَمْلَةِ ، وَرَاحَ
يَسْتَعْرِضُ فِي مَخِيلَتِهِ قَوَّادَهُ ، وَيَعْجُمُ عَوْدَهُمْ ، فَوَجَدَ
أَنَّ طَارِقَ بْنَ زِيَادٍ أَكْفَوُهُمْ ، وَأَصْلُبُهُمْ عَوْدًا ، فَبَعَثَ
فِي طَلَبِهِ .

وَأَقْبَلَ طَارِقُ بِقَامَتِهِ الطَّوِيلَةِ ، وَشَعْرِهِ الْأَصْفَرِ ،
وَعَيْنَيْهِ الزَّرْقَاوَيْنِ ، فِي عُدَّةِ الْقِتَالِ ، فَكَانَ أَشْبَهَ
بِمَارِدٍ مِنْ مَرْدَةِ الْحُرُوبِ ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى :

— لَقَدْ قَلَّدْتُكَ قِيَادَةَ الْمُجَاهِدِينَ ، الْخَارَجِينَ لَغَزْوِ
الْأَنْدَلُسِ ، فَتَاهَبَ لِلْخُرُوجِ ، وَسَيَخْرُجُ مَعَكَ يُلْيَانُ .
عَقَدَ لَهُ مُوسَى ، وَبَعَثَهُ فِي سَبْعَةِ آلَافٍ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ ، جُلُّهُمْ مِنَ الْبُرْبُرِ وَالْمَوَالِي ، لَيْسَ فِيهِمْ
عَرَبٌ إِلَّا قَلِيلٌ ، وَرَاحَ يُلْيَانُ يُهَيِّئُ الْمَرَاقِبَ ، فَقَدْ
حَانَتْ سَاعَةُ الْإِنْتِقَامِ ، مِنْ لُذْرِيْقٍ ، الَّذِي ثَلَمَ شَرْفَهُ
وَلَطَّخَ جَبِينَهُ بِالْعَارِ .